ولا إلى دليل ، ولا إلى حجة ، لأن وليهم الشيطان ، « والله لا يهدى القوم الظالمين » والآية التى تأتى من بعد ذلك كلها ستتدخل فى الحياة والموت ، ومن المهم أن الآية تدخل فى الحياة والموت كى لا نفهم أن إبراهيم إنما ترك المحاجة مع ذلك الذى حاجّه فى أمر الموت والحياة هربا من الكلام فيها ، لذلك يريد الله أن يستوفى تلك القضية استيفاء فى قصص متعددة ، ويبسط الحق القضية التى عدل عنها إبراهيم وهى الموت والحياة فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ
ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ
قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ
أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

وعندما ننظر إلى بداية الآية نجدها تبدأ بـ « أو » ، وما بعد « أو » يكون معطوفاً على ما قبلها ، فكأن الحق يريد أن يقول لنا : أو (ألم تر) إلى مثل الذى مر على قرية .

وعندما تسمع كلمة « قرية » فإنها تفيد تجمع جماعة من الناس يسكنون فى مكان

محدود ، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة . ونلحظ كذلك أن الحق سبحانه لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية أو باسم الذى مر عليها .

قال البعض : إنه هو أرمياء بن حلقيا أو هو الخضر ، أو هو عزير ، وقد قلنا من قبل : إنه إذا أبهم الحق فمعناه : لا تشخص الأمر ، فيمكن لأى أحد أن يحدث معه هذا .

« أو كالذى مر على قرية » . وقالوا : إنها بيت المقدس ، « وهى خاوية على عروشها » وحتى نفهم معنى خاوية على عروشها ، لنا أن نعرف أننى عندما أقول : « أنا خويان » أى « أنا بطنى خاوية » : « جوعان » فـ « خاوية » المقصود بها أنها قرية خالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها منصوبة ، لكن ليس فيها سكان ، والحق بقوله عن تلك القرية : إنها خاوية على عروشها ، و« العرش » يُطلق على البيت من الخيام ، ويطلق كما نعرف على السقف ، فإذا قال : « خاوية على عروشها » أى أنّ العرش قد سقط أولا ، ثم سقطت الجدران عليه ، مثلما نقول فى لغتنا العامية : « جاب عاليها على واطيها » .

وعندما يمر إنسان على قرية مثل هذه القرية فلا بد أن مشهدها يكون شيئاً لافتا للنظر ، قال : « أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية . والحق حين يذكر القرية فى القرآن فهو يقصد فى بعض الأحيان الحديث عن أهلها مثل قوله تعالى :

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن أبناء يعقوب عليه السلام حين عادوا من مصر وتركوا أخاهم الأصغر مع يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم : أرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر واسأل بنفسك زملاءنا الذين كانوا معنا فى القافلة ، وسيقولون لك : إننا قد تركنا أخانا بمصر . لكن سؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال عن أهلها .

« أنَّى يُحيى هذه الله بعد موتها » وساعة تسمع « أنَّى » فهى تأتى مرة بمعنى « كيف » ، ومرة تأتى بمعنى : « من أين » ، والمناسب لها هنا هو أن يكون السؤال كالتالى : « كيف يُحيى الله هذه بعد موتها » ؟ وقوله هذا يدل على أنه مؤمن ، فهو لا يشك فى أن قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية ، فكأنه مؤمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت ، وهذه ستأتى فى قصة سيدنا إبراهيم :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

هو لا يشك فى أن الله يُحيى الموتى ، إنما يريد أن يرى كيف تتم هذه الحكاية ؛ لأن الذى يريد أن يعرف كيفية الشىء ، لا بد أنه متعجب من وجود هذا الشىء ، فيتساءل : كيف تم عمل هذا الشىء ؟ مثلما نرى الأهرام ، ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساءل فقط : كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟ إذن فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث .

والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث ، فقول الحق : « أنَّى يُحيى هذه الله » . . يعنى : كيف يُحيى الله هذه القرية بعد موتها ، فكأن القائل لا يشك فى أن الله يُحيى ، ولكنه يريد الكيفية ، والكيفية ليست مناط إيمان ، فالله لم ينهنا عن التعرف على الكيفية ؛ فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدث .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فمُصمم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة ، أنت تراها ، فأنت تتيقن من أنه صانعها ، ولكنك تتعجب فقط من دقة الصنعة ، وتقول له : بالله كيف عملت هذه ؟ كأنك قد عشقت الصنعة ! فتشوقت إلى معرفة كيف صارت ، فما بالنا بصنعة الحق تبارك وتعالى ؟ إنك تندهش وتتعجب لتعيش فى ظل السر السائح من الخالق فى المخلوق ، وتريد أن تنعم بهذه النعم .

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ أنت ترى مثلا لوحة رسمها رسام ، فتقول له : بالله كيف مزجت هذه الألوان ؟ أنت لا تشك فى أنه قد مزج

الألوان . بل تريد أن تسعد نفسك بأن تعرف كيف رسمها ، إذن فقوله وقول إبراهيم بالسؤال فى الإحياء والإماتة فيما يأتى ليس معناه أنه غير مؤمن بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية ؛ ليعيش فى جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصنعة .

ونعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة التى تعمر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها وجدرانها وعروشها لها حياة ولها موت . وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون الإجابة تجربة معاشة فى ذات السائل ؛ لذلك يأتى القرآن بالقول « فأماته الله مائة عام » .

إن صاحب السؤال قد أراد أن يعرف الكيفية ، وطلبه هو إيمان دليل ، ليصبح فيما بعد إيمانا بواقع مشاهد « فأماته الله مائة عام »لقد جعل الله الأمر والتجربة فى السائل ذاته وهذا إخبار الله . لقد أماته مائة عام ، والعام هو الحول ، وقد سموا « الحَوْل » عاما ؛ لأن الشمس تعوم فى الفلك كله فى هذه المدة ، والعوم سَبْحٌ ، والحق يقول :

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

ولذلك نسميه عاماً . « فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » ، فكأن الله قال له كلاماً كما كلم موسى ، أو سمع صوتاً أو ملكاً أو أنّ أحدًا من الموجودين رأى التجربة . فالمهم أن هناك سؤالاً وجوابًا . ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار فى هذا الشأن ، السؤال هو : كم لبثت ؟ فأجاب الرجل : لبثت يوماً أو بعض يوم .

وإجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة :« لبثت يوماً أو بعض يوم » أو يكون قد قال ذلك ؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن . فهل هو صادق فى قوله أو كاذب ؟ إنه صادق ، لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير ، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً ، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو قد

نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها ، لكنه لم يجد تغيراً .

فماذا كان جواب الحق ؟ قال الحق : « بل لبثت مائة عام » . إننا هنا أمام طرفين ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً ، طرف يقول : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ورب يقول : « بل لبثت مائة عام » . ونريد أن نحل هذا اللغز . إن الحق سبحانه صادق ومُنزّه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ونريد دليلا على هذا ، ودليلا على ذاك . نريد دليلا على صدق العبد فى قوله : « لبثت يوماً أو بعض يوم » . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليل اطمئنان لا دليل برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونقول : إن فى القصة ما يؤيد « لبثت يوما أو بعض يوم » ، وما يؤيد « بل لبثت مائة عام » ، فقد كان مع الرجل حماره ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين . فقال الحق سبحانه وتعالى : « لبثت مائة عام » ، وأراد أن يدلل على الصدق فى القضيتين معاً قال : « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه »، ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يوما أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل ، بقيت قضية « مائة عام » .

فقال الحق : « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس » وهذا القول يدل على أن هنا شيئا عجيبا ، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره وقد تحول عظاماً مبعثرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم ، لكن أن يَرِمّ جسمه ، ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام ، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صدق « يوماً أو بعض يوم » .

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ، وكيف بُسط

الزمن فى مسألة الحمار . إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حق شىء ، ويبسط الزمن فى حق شىء آخر ، والشيئان متعاصران معا . وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس .

وقد قال الحق سبحانه : « ولنجعلك آية للناس » ، فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذى مَرَّ على قرية آية لهم ؟ كان لابد أن يوجد أناس فى القصة ، لكن القرية خاوية على عروشها ، وليس فيها إنسان أو بنيان ، أهم الذين كانوا فى القرية أم سواهم ؟ قال بعض المفسرين هذا ، وقال البعض الآخر الرأى المضاد .

وأصدق شىء يمكن أن يتصل بصدق الله فى قوله : « ولنجعلك آية للناس » هو قبض الله للزمن فى حق شىء ، وبسطه فى حق شىء آخر ، وعزير كما قال جمهرة العلماء هو الذى مر على قرية ، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، ويوشع ، وقد أراه الله العظام وكيف ينشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحما ، أى أراه عملية الإحياء مشهدياً ، وفى هذا إجابة للسؤال : « أنَّى يُحيى هذه الله بعد موتها » ؟

والحق يقول : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » و« ننشزها » أى نرفعها ، ورأى « عزير » كل عظمة فى حماره ، وهى تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تُركب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمى للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً ، وبعد ذلك تأتى الحياة .

لقد وجد عزير إجابة فى نفسه ، ووجد إجابة فى الحمار ، ومن بعد ذلك تذكر قريته التى خرج منها ، وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام ، وكان فى تلك القرية مولاة لهم ، أى أمة فى أسرته ، وكانت هذه الأمة قد عميت وأصبحت مقعدة ، فلما دخل وقال : أنا العزير . قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد ؟

قال : أنا العزير . قالت : إن للعزير علامة ، هذه العلامة أنه مجاب الدعوة ، ولم تنس نفسها . قالت : فإن كنت العزير فادع الله أن يرد عليَّ بصرى وأن يخرجنى من قعودى هذا . فدعا عزير الله فبرئت ، فلما برئت ؛ نظرت إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد . وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه ، فوجده رجلا قد تجاوز مائة سنة ، وكان العزير لا يزال شابا فى سن خمسين سنة .

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزاً : وما ابنٌ رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذى أماته الله وهو فى الخمسين ثم أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابنه . قال الابن : كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه « شامة » . فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة .

وتثبت أهل القرية من صدق عزير : بشىء آخر هو أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها حرق التوراة ، إلا أن رجلا قال : إن أباه قد دفن فى مكان ما نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة ، قال العزير : وأنا أحفظها . وتلا العزير التوراة كما وُجدت فى النسخة ، فصدق القوم أنه العزير ، وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا فى سن الخمسين . ولذلك يذيل الحق الآية بالقول : « قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ نعم كان يعلم علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، فليس مع العين أين .

إذن فـ « أعلم أن الله على كل شىء قدير » هى تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن يبسط الزمن ويقبضه ، وقدرة الله على الإحياء والإماتة ، فصار يعلم حق اليقين بعد أن كان يعلم علم اليقين .

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة . ومعنى تعليق الحياة هو يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوى ، أى تنكمش فى الشتاء

فى ذاتها ولا تُبدى حركة ، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء ، ومدة البيات الشتوى لا تحتسب من عمر الثعابين ، ولذلك يقال : إن ذلك هو عملية تعليق الحياة . وهذه العملية التى قد نفسر بها مسألة أهل الكهف . فأهل الكهف أيضا مرت عليهم العملية نفسها :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إنهم لم يروا شيئاً قد تغير فيهم . وبعد ذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن الله حدد الزمن الذى لبثوه ، بينما هم قالوا : إن الزمن هو يوم أو بعض يوم . ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التى كانت قبل هذا اللون من النوم . إذن فقد علق الله حياتهم . ونلاحظ أن كل هذه العملية قد جاءت هنا فى قصة العزير بعد آية الكرسى التى تصور العقيدة الإيمانية :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وتصور قضية الحياة وقضية الموت ونعلم أن إبراهيم حين حاجَّه الرجل وقال له :

« أنا أحيى وأميت » نقل إبراهيم الحُجّة إلى الليل والنهار ، وطلب منه أن يعكس آية الليل والنهار ، فقال للرجل : « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر » .

وحتى لا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام إنما ترك الكلام عن الإحياء والإماتة فراراً من الجدل . ونقل الأمر إلى الشمس ، لكن أراد الله أن يأتى بقصة هذا الإنسان الذى مر على قرية وهى خاوية ، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحق لنا أن قضية الحياة وقضية الموت بيده وحده . وليخرج الحق سبحانه أمر الحياة والموت عن مجال السفسطة الجدلية . وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حينما تعرضنا لقول الذى حاج إبراهيم فى ربه باثنين من المسجونين وقال : أنا أستطيع أن أقتل واحدا ، وأن أترك الثانى بلا قتل .

هذه هى السفسطة : إنه لم يحى ، بل أبقى حياة . وعرفنا أن الإحياء ضد الإماتة ؛ لأن الإماتة هى أن تخرج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان فى البدن . أما إذا فعل إنسان أى شىء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته بل يقال لقد قتله . والموت كما عرفنا غير القتل .

وتأتى بعد ذلك قصة لإبراهيم أيضا بعد أن نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس ، فبهت الرجل الذى كفر ، أما إبراهيم عليه السلام فهو مؤمن بقدرة الله ، لكنه يريد أن يعرف الكيفية . إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : « رب أرنى كيف تحيى الموت قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ونحن المسلمين لم نشك فى هذا الأمر . إذن ، فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى بدليل منطوق الآية حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يسأل : كيف تُحيى الموتى ؟ أى أنه يطلب الحال التى تقع عليها عملية الإحياء . فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى الإحياء ، وإنما كان شكه ـ عليه السلام ـ فى أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه فى أن يريه ويطلعه على كيفية إحياء الموتى ؟ ولنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله مُنزه عن أى تشبيه .

إن الواحد منا يقول للمهندس : كيف بنيت هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى مُحْدَث وهو البيت الذى تم بناؤه . فهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان ؟ لا .

ولنعلم أولا ما معنى : عقيدة ؟. إن العقيدة هى : أمر معقود ، وإذا كان هذا فكيف يقول : « ليطمئن قلبى » ؟ فهل هذا دليل على أن إبراهيم قبل السؤال ، وقبل أن يجاب إليه ، لم يكن قلبه مطمئناً ؟ لا ، لقد كان إبراهيم مؤمناً ، ولكنه يريد أن يزداد اطمئناناً ؛ لأنه أدار بفكره الكيفية التى تكون عليها عملية الإحياء ، لكنه لا يعرف على أية صورة تكون .

إذن فالاطمئنان جاء لمراد فى كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة ، ومادمت تريد الكيفية ، وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بكلام . بل لا بد أن تكون تجربة عملية واقعية ، « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك » . و« صرهن » أى أملهن وأضممهنّ إليك لتتأكد من ذوات الطير ، ومن شكل كل طير ، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير هى : الغراب ، الطاووس ، الديك ، الحمامة ، وهكذا كان كل طائر له شكلية مختلفة .

« ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا » ، فهل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أو اكتفى بأن شرح الله له الكيفية ؟ إن القرآن لم يتعرض لهذه الحكاية ، فإما أن يكون الله قد قال له الكيفية ، فإن أراد أن يتأكد منها فليفعل ، وإمّا أنه قد تيقن دون أن يجرى تلك العملية . إن القرآن لم يقل لنا هل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أم لا ؟ والحق يقول مخاطبا إبراهيم بخطوات التجربة : « ثم ادعهن يأتينك سعيا » وكان المفروض أن يقول : يأتينك طيرانا .

فكيف تسعى الطيور ؟ إن الطير يطير فى السماء وفى الجو . لكن الحق أراد بذلك ألا يدع أى مجال لاختلاط الأمر فقال : « سعيا » أى أن الطير سيأتى أمامه سائرا ، لقد نقل الحق الأمر من الطيران إلى السعى كى يتأكد منها سيدنا إبراهيم ، إذن فلكى تتأكد يا إبراهيم ويزداد اطمئنانك جئنا بها من طيور مختلفة وأنت الذى قطعتها ، وأنت الذى جعلت على كل جبل جزءا ، ثم أنت الذى دعوت الطير فجاءتك سعيا .

وهنا ملحظية فى طلاقة القدرة ، وفى الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود وهو الله ـ سبحانه ـ لمنكر واجب الوجود وهو الإنسان ، هذا له قدرة ، وذاك له قدرة ؛ إن قدرة الله هى قدرة واجبة ، وقدرة الإنسان هى قدرة ممكنة ، وقدرة الله لا ينزعها منه أحد ، وقدرة الإنسان ينزعها الله منه ؛ فالإنسان من البشر ، والبشر تتفاوت قدراتهم ؛ فحين

تكون لأحدهم قدرة فهناك آخر لا قدرة له ، أى عاجز . ويستطيع القادر من البشر أن يعدى أثر قدرته إلى العاجز ؛ فقد يحمل القادر كرسيا ليجلس عليه من لا يقدر على حمله . لكن قدرة الحق تختلف .

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا أعدى من قدرتى إلى من لا يقدر ، فيقدر ، أنا أقول للضعيف : كن قادراً ، فيكون . وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم : « ثم ادعهن يأتينك سعيا » . إن إبراهيم كواحد من البشر عاجز عن كيفية الإحياء ، ولكن الحق يعطيه القدرة على أن ينادى الطير ، فيأتى الطير سعيا .

إن الحق يعطى القدرة لإبراهيم أن يدعو الطير فيأتى الطير سعيا . وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة ، وبين القدرة الممكنة . إن قدرة الممكن لا يعديها أحدٌ لخالٍ منها ، ولكن قدرة واجب الوجود تُعديها إلى من لا يقدر فيقدر ، ولذلك يأتى القول الحكيم بخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن خصائص عيسى ابن مريم لا تكون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيرا ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن ممن ؟ بإذن من الله .

وكذلك كان الأمر فى تجربة سيدنا إبراهيم ، لذلك قال له الحق : « واعلم أن الله عزيز حكيم » . إن الله عزيز أى لا يغلبه أحد . وهو حكيم أى يضع كل شىء فى موقعه .

وكذلك يبسط الحق قصة الحياة وقصة الموت فى تجربة مادية ؛ ليطمئن قلب سيدنا إبراهيم ، وقد جاءت قصة الحياة والموت ؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وفى قول آخر :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة يس)

لقد أمر الحق سبحانه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليجيب على ذلك : قل يا محمد : يحييها الذى أنشأها أول مرة ؛ فقد خلقها من عدم ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الروم)

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يبدأ الخلق على غير مثال ، ثم يعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد من يظن أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه ؛ فالله له مطلق القدرة فى خلقه ، وهو الغالب فى ملكه ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره .

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم . فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه

وتعالى . إن هذه القضية إنما تثبت اليوم الآخر ، لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدى فإن استقر فى القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التى تسير على ضوء منهج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى .

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حسابا وهناك جزاءً ، وهناك بعثا ، فهو يعرف أنه لم ينطلق فى هذا العالم ، ولم يفلت من الإله الواحد القهار ، إنّ للإنسان عودة ، فالذى يغتر بما آتاه الله نقول له : لا ، إنك لن تفلت من يد الله ، بل لكَ عودة بالموت وعودة بالبعث . وإذا ما استقرت فى أذهان المسلمين تلك العودة ، فكل إنسان يقيم حسابه على هذه العودة .

وبعد أن استقر الأمر فى شأن الحياة والموت أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجىء بشىء هو ثمرة الحياة فى الكائن الحى وأول مظهر من مظاهر الحياة هو الحس والحركة . والحركة فى الوجود أرادها الله للإنسان ؛ لأنه وهو الحق قد أراد الإنسان للخلافة فى الأرض . والخلافة فى الأرض تقتضى أن يعمر الإنسان الأرض ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إن خلافة الإنسان فى الأرض تقتضى أن يتحرك ويعمر الأرض . وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعمر الأرض فلا بد من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بد من فنون متعددة تقوم على العمارة . ويوزع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهبَ مفكرة ومخططة فى البشر . إن الحق سبحانه لم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ، بل نثر الله المواهب على الخلق ، وكل واحد أخذ موهبة ما .

لماذا ؟ لأن الله قد أراد أن يتكامل العالم ولا يتكرر ؛ فالتكامل يوحى بالاندماج . فإذا كنت أنت تعرف شيئاً خاضعا لموهبتك ، وأنا لا أعرفه فأنا مضطر أن ألتحم بك ، وأنا أيضا قد أعرف شيئا وأنت لا تعرفه ، لذلك تضطر أنت أن تلتحم بى . وهذا اللون من الالتحام ليس التحام تفضل . إنما هو التحام تعايش ضرورى .

لكن لو أن كل واحد صار مجمع مواهب ، لاستغنى عن غيره من البشر وأقام وحده بمفرده ، وينتهى احتياجه للمجتمع الإنسانى . فكأن الله حين وزع أسباب الفضل على الخلق يريد منهم أن يتكاملوا ويلتحم بعضهم ببعض لا التحام فضل ، ولكن التحام تعايش ضرورى ؛ لأن واحداً يريد ما ينتجه الآخر بموهبته ، والآخر يريد من إنسان غيره ما هو موهوب فيه . ولذلك فالناس بخير ما تباينوا ؛ لأن كلا منهم يحتاج إلى الآخر .

ولذلك لا نجد أى تقدم فى مجتمع إلا إذا كانت المواهب فى هذا المجتمع مختلفة ومتآزرة . أما حين يوجد قوم لهم مواهب متحدة فلا بد أن يقاتل بعضهم بعضا لكن عندما يكون كل واحد فى حاجة لموهبة الآخر ، فهم يتعايشون ؛ لأن الحياة لا تسير إلا بالكل ، ولذلك إذا استوت جماعة فى المواهب فلا بد أن يتفانوا لأنهم يتنافسون فيها ويريد كل واحد منهم أن يستأثر بها لنفسه ، لكن لا أحد فى المواهب المتكاملة يقول : لماذا يكون فلان أفضل منى ، لأنه يعرف أنه من الضرورى أن يوجد المهندس والطبيب والصانع ، ولذلك تجد الوجود منظما بذاته التنظيم الطبيعى الذى يُوجد قاعدة ويُوجد قمة ، فالقمة الصغيرة تحملها القاعدة الكبيرة . ولو عكست الهرم لصارت مشكلة ؛ لأن الأمر فى هذه الحالة سَيَجِدُ به جوانب كثيرة ليس لها أساس ولا ترتكز على شىء ، ولذلك فمن الحكمة إذا رأيت فى المجتمع واحداً قد ذهب إلى القمة فأعنه على أن يستمر متفوقا ، ولا تصطرع معه فتسقطوا جميعا ، فلا بد من التفاضل كى ينشأ التكامل .

والحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القضية عرضا اجتماعيا وعرضا اقتصاديا ؛ ليبين لنا أن أصل الوجود يجب أن ينشأ على أمر اجتماعى وأمر اقتصادى ، لماذا ؟ لأن الإنسان مشغول أولا باستبقاء حياته ، ثم باستبقاء نوعه . واستبقاء حياة الإنسان بالقوت ، واستبقاء نوعه بالزواج . واستبقاء الحياة بالقوت يحتاج إلى حركة فى الحياة ، والحق يحترم ثمرتها ، وعندما يريد الحق أن يرقق قلب المتحرك على أخيه العاجز فهو يقول :

﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

كما ضربنا المثل من قبل - ولله المثل الأعلى - وقلنا : إن الإنسان يعطى أولاده مصروفا ، وكل واحد منهم يضعه فى حصالته ، فهب أن واحداً من الأولاد اضطر إلى شيء عاجل كإجراء جراحة ، هنا يذهب الرجل إلى أولاده ويقول لهم : أقرضونى ما فى حصالاتكم لأن أخاكم يحتاج إلى عملية ، وسأرده لكم بعد ذلك مضاعفا . إن الأب لم يرجع فى هبته ليقول إن ما فى الحصالات هو مالى وسآخذه . لا ، هو مالكم ، لكنه سيكون دينا عندى .

كذلك يصنع الله مع الخلق فيوضح : بعضكم عاجز وبعضكم قادر ، وسأتكفل أنا بالعاجز ، وأقترض من القادر . وكان ضروريا أن يكون بعضنا عاجزاً ، حتى لا يظن أحد أن القوة ذاتية فى النفس البشرية . لا ، إن القوة موهوبة ؛ ويستطيع من وهبها أن يسلبها . وحتى يعرف صاحب القوة أن القوة ليست ذاتية فيه ، يجد بجانبه إنساناً آخر عاجزا . لكن هذا العاجز الذى سيلفت القوى إلى أن القوة ليست ذاتية ، ما ذنبه ؟

إنّ الله قد جعله وسيلة إيضاح فى الكون وكأن الحق يقول : سنضمن لك أيها العاجز المستوى اللائق من الحياة من أثر قدرة القادر ، ومادام من أثر قدرة القادر ، فهل سيتحرك القادر فى الكون على قدر «حاجته» أو على قدر «طاقته» ؟ لابد أن يتحرك على قدر طاقته ؛ لأنه لو تحرك على قدر حاجته فلن يجد ما يعطيه للعاجز .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن تلك القضية المهمة فى البناء الاجتماعى والبناء الاقتصادى بعد إثبات قضية البعث والإحياء والإماتة لكى تكون ماثلة أمامنا ، وينتقل بنا الحق سبحانه وتعالى كى يعطينا الكيان الإسلامى الاقتصادى والاجتماعى فيقول جل شأنه :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ

﴿ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١)

إن الله ينسب المال للبشر المتحركين ؛ لأنهم أخذوا هذه الأموال بحركتهم . وفى موضع آخر من القرآن يقول الحق :

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة النور)

إن المال كله مال الله ، وقد أخذه الإنسان بالحركة ، فاحترم الله هذه الحركة ، واحترم الله فى الإنسان قانون النفعية ، فجعل المال المتبقى من حركتك ملكا لك أيها الإنسان ، لكن إن أراد الله هذا المال فسيأخذه ، ومن فضل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضا من المال المتبقى من حركته فهو يطلبه كقرض ، ويرده مضاعفا بعد ذلك .

إذن فالإنفاق فى سبيل الله يرده الله مضاعفا ، ومادام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك ؛ لأنك أعطيته لمقتدر قادر واسع عليم . إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه ؛ إنه يعطى على قدر نية العبد وقدر إنفاقه . وهذه الآية تعالج قضية الشُح فى النفس الإنسانية ؛ فقد يكون عند الإنسان شىء زائد ، وتشح به نفسه ويبخل ، فيخاف أن ينفق منه فينقص هذا الشىء .

وهنا تقول لك قضية الإيمان : أنفق لأنه سبحانه سيزيدك ، والحق سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التى تزرعها . أنت تضع الحبة الواحدة . فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا . إن حبة القمح تعطى كمية من العيدان وكل عود فيه سنبلة وهى مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه أفلا يضاعف العطاء لك الذى خلقها ؟ وإذا كان بعض من خلق الله يضاعف لك ، فما بالك بالله جل وعلا ؟

إن الأرض الصماء بعناصرها تعطيك ، أئذا ما أخذت كيلة القمح من مخزنك

لتبذرها فى الأرض أيقال : إنك أنقصت مخزنك بمقدار كيلة القمح ؟ لا ؛ لأنك ستزرع بها ، وأنت تنتظر كم ستأتى من حبوب ، وهذه أرض صماء مخلوقة لله ، فإذا كان المخلوق لله قد استطاع أن يعطيك بالحبة سبعمائة ، ألا يعطيك الذى خلق هذه الأرض أضعاف ذلك ؟

إنه كثير العطاء . والحق قد نسب للمنفقين الأموال التى رزقهم الله بها فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » وكلمة « فى سبيل الله » كلمة عامة ، يصح أن يكون معناها الجهاد ، أو مصارف الصدقات ؛ لأن كل هذا فى سبيل الله ؛ لأن الضعيف حين يجد نفسه فى مجتمع متكافل ، ويجد صاحب القوة قد عدّى من أثر قوته وحركته إليه ، أيحقد على ذى القوة ؟ لا ؛ لأن خيره يأتيه ، نضرب المثل فى الريف نقول :

البهيمة التى تدر لبناً ساعة تسير فى الحارة . فالكل كان يدعو الله لها ويقول : « يحميكى » لماذا ؟ لأن صاحبها يعطى كل من حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها ، لذلك يدعو لها الجميع ، ولا يربطها صاحبها ، ولا يعلفها ، ولا ينشغل عليها ، والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل ، وحين نجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معيناً له ، هنا يقول العاجز : إننى فى عالم متكامل .

وإذا ما وُجد فى إنسان قوة وفى آخر ضعف ؛ فالضعيف لا يحقد وإنما يقول : إن خير غيرى يصلنى . وكذلك يطمئن الواهب أنه إن عجز فى يوم ما سيجد من يكفله - والقدرة أغيار - مادام الإنسان من الأغيار . فقد يكون قويا اليوم ضعيفاً غداً .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم » هو قانون يريد به الله أن يحارب الشُح فى نفس المخلوقين ، إنه يقول لكل منا : انظر النظرة الواعية ؛ فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح ! صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها ، ولكنّك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها . وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة ، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه .

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل

سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » إن الآية تعالج الشُح ، وتؤكد أن الصدقة لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

إنها لقطة أخرى يوضح فيها الحق : إياك حين تنفق مالك فى سبيل الله وأنت طامع فى عطاء الله أن تمن على من تعطيه أو تؤذيه . والمنّ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقا له وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما يقولون فى الريف (تعاير بها) ، والشاعر يقول :

وإنّ امْرأً أسدى إليّ صنيعة ... وذكّرنيها مَـرَّةً للئيم

ولذلك فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان ان ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق ، ولا يطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدقه عليه وخاصة الصغار الذين لا يفهمون منطق الله فى الأشياء ، فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دلّ ابنى وَمَنّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيره هو ، ولا يمكن أن يقدر هذا الأمر إلا مُكَلَّفٌ يعرف الحكم بحيثيته من الله .

إن الحق يوضح لنا : إياك أن تتبع النفقة منّا أو أذى ؛ لأنك إن أتبعتها بالمنّ ماذا يكون الموقف ؟ يكرهها المُعْطَى الذى تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد ، ويتولد عنده بغض ، ولذلك حينما قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه » شرحوا ذلك بأن اتقاء شر ذلك الإنسان بألا تذكره بالاحسان ، وإياك أن تذكره بالإحسان ؛ لأن ذلك يولد عنده حقداً .